قصّة قصيرة

حدث في بلاد الواق واق

أحمد سويد

بدا على الواقواقيّين أنّهم تعبوا من صراعاتهم القبائليّة، وأنّ الحزن الجماعيّ قد سيطر عليهم. فها هي بلادهم الشاسعة ممزّقة تتناهشها السباع الغريبة. وها هو القحط يضرب رواقه البائس في أرضهم، وهو قحطٌ مثلّث الوجوه: قحطٌ في المواسم، وقحطٌ في البهائم، وقحطٌ في عقول الرجال.

وتصادف أن كان هناك شيخ ضرير لم يتسلّل القحطُ بعد إلى عقله؛ وأنّه أدرك بؤسَ حالهم، فأشار عليهم أن يتداعوْا فوراً إلى مؤتمر عاجل، لتدارس الأوضاع الراهنة، والاتفاق على تدابير تحول دون استمرار هذا التردّي الخطير والشامل.

واستجابت المضاربُ الواقواقيّة لنصيحة الشيخ، فقرعوا طبولهم الّتي لم تكن هذه المرّة طبول استنفار لحروب جديدة، بل طبول دعوةٍ للتجمُّع. وما إن التأم الشمل حتّى قام الشيخ الضرير خطيباً فيهم، يذكّرهم كيف كانت أرضهم أرض خيرات تتفجّر فيها ينابيعُ من لبنٍ وعسل، وكيف كانت قلوبهم تفيض بالتسامح والتآلف والمحبّة، فلمّا أنتنت هذه القلوب وصارت تفيض بالضغائن والكراهية والأطماع، اهتبلت السباعُ الغريبة الفرصة، فانقضّت تتناهش الأرضَ وخيراتها وناسها، وتسوق المضارب إلى مصيرٍ يُحمد الله على أنّها بدأت تستشعر مخاطره، وترعبها ملامحُهُ البشعة.

وانتهى الشيخُ الضرير إلى دعوة الواقواقيّين إلى إعمال العقل الّذي يكاد يكون في حالة احتضار، وإلى إنعاش الضمير الّذي يكاد يخنقه رهقُ الغيبوبة.

وانفضّ النادي، وخرج الواقواقيُّون مطرقين يتفكّرون بما قاله الشيخ الضرير.

* * *

... وذات ليل متطاول، سمع الواقواقيُّون جلبةً وقرقعةَ سلاحٍ وصهيلَ خيول، وفتحوا عيونهم في الصباح على شراذم من الجند تنتشر بين المضارب وهي شاهرة سيوفها، وتدعو الناس إلى إعلان الطاعة للزعيم الّذي نبت من قلب المعاناة، ليخلّص الجماهير الواقواقيّة من عتمة الماضي وبؤس الحاضر ورعب المستقبل.

وأدهش الواقواقيّين أنّ نسخة مكرّرة عن هذا الزعيم كانت تنتصب أمام مضارب كلّ قبيلة؛ وأنّ تعليقاتِ شهود العيان المتواترةَ كانت واحدة.

بعضهم قال إنّه سمع الزعيم يقسم بشرفه الغالي أنّه سوف «يطوّع» السباع الغريبة، وبعد أن يتعتعها من التعب، سوف يرغمها على الهرب، وأنّه سوف يعيد خيرات الأرض المنهوبة إلى أصحابها الحقيقيّين.

وبعضهم زعم أنّه رأى رأي العين العسلَ الصافي يقطر من أنامل الزعيم وهو يلوّح بيده للجماهير، وذلك في الوقت نفسه الّذي كان فيه شررُ الغضب للعرض والأرض يتطاير من عينيه.

وبعضٌ آخر يؤكّد جازماً أنّ الزعيم كان وهو يتحدّث إلى الجماهير يُخرج من كمّه الفضفاضِ الأرانبَ البيضاءَ والعصافيرَ الجميلة والمناديلَ المختلفة الألوان، وأحياناً حين كان يهتاج ويحتدّ، كانت الجبال والأفاعي والدخان ولهب النّار تخرج من أنفه وفمه، وذلك لا يعني أنّ الزعيم ـ لا سمح الله ـ حاوٍ وساحر، بل إنّه بكلّ وضوح قويّ وجبّار، وأنّه قادر على تحقيق وعوده السخيّة للجماهير، كما يجب أن تترجم هذه الأمارة.

وبعضٌ رابعٌ يقسم بالله ورسوله أنّه رأى، حين كان الزعيم يهدر كالنهر الغاضب، أشجارَ الغابات الهامدة تبرعم على الفور، ثمّ تورق وتزهر؛ والحقول القاحلة الميتة، تحيا وتُمرع وتتموّج، وقطعانَ

الأغنام الناصعة البياض تغطّي المروج، حتّى إذا أتخمها الخير الأخضر ربضت هانئة مطمئنّة، تحلم وتجتّر.

وبعضٌ خامسٌ كان يصغي بخبث ويبتسم باستخفاف: لِمَ كتمان الحقيقة والتستّر على نوايا الشرّ؟... وهؤلاء كانوا قلّةً لم يُقدَّر لها أن تهتدي، وأن يعمر قلوبها الإيمانُ بهذه الظاهرة... إلّا أنّ العسس السرّي للزعيم كان ـ والحمد لله ـ يراقبهم بانتباهٍ ويقظة، ويرسم على جباههم علامات سريّةً فارقة لكي يتسنّى له فيما بعد أن يقنعهم بأسلوبه الخاصّ الناعم بقدرة الزعيم على تحقيق وعوده كلّها إن شاء الله.

وتعالت الهتافاتُ للزعيم المكرر، لدرجة أن هديرها كان يلامس قمم الجبال العالية ثمّ ينزلق عنها إلى الوديان السحيقة ليحدث ما يشبه زأرة الصواعق الغضبى ثمّ لينداح بعد ذلك في البراري الواسعة حاملاً إلى الواقواقيّين بشرى الفجر الجديد.

* * *

... وقد علقتْ في حافظة الواقواقيّين نُتَفٌ ممّا قال الزعيم المكرر أمام مضاربهم، خلال خطابه التاريخي الطويل:

«أيّها الوقواقيُّون:

احمدوا ربّ السماء على نعمته الّتي أنزلها عليكم متجسّدةً بشخصنا الحقير؛ ولا تنزعجوا، يا رعاكم الله، إذا ما لاطفنا السباعَ الغريبة الّتي أذاقتكم الويل. فنحن لا نلاطفها إلّا لنخفّف من حدّة ضراوتها، ولنتمكّن بالتالي من اقتلاع أنيابها وطردها مذمومةً مدحورة.

ولا تندهشوا لهذه الأسوار نقيمها بين مضارب كلّ قبيلة منكم ومضارب جاراتها. فنحن لا نرفع هذه الأسوار إلّا لنقوّي فيكم غريزة التجمّع. حتى إذا طهّرناكم من أنانيّاتكم القبليّة، ونوازعكم الذاتيّة، واطمأنّ خاطرنا إلى صدق نواياكم الوحدويّة، ورغبتكم في التواصل الأخوي، نسفناها بعون الله، في سبيل المجتمع الواحد، والهدف الواحد، والكيان الواحد.

ولا تتذمّروا إذا ما رأيتم أعواننا يمدّون أيديهم الطويلة إلى خيراتكم؛ فهؤلاء الأعوان هم درع مستقبلكم، ولهم علينا حقّ في أن نهزل قليلاً لكي يسمنوا، ونضعف قليلاً لكي يقووا، ونجوع قليلاً لكي يشبعوا.

ولا تخافوا من عسسنا فهم حرّاس نومكم الهادئ، وأبوابكم المشرعة، وهم نواطير منجزاتنا الّتي قد يجهضها الشرّ الكامن في أعماق بعضنا إذا ما نحن نمنا عن حراستها، وهم عيوننا المفتوحة أبداً الّتي تراقب التحرّكات المشبوهة أيّاً كان مصدرها. ولا تبدوا الضيق أيضاً إذا حاولت أجهزتنا الفاحصة أن تتسلّل إلى جماجمكم، فقد يغرس الشيطان اللّعين نباتَ السوء في هذه الجماجم على غفلةٍ منكم، فلماذا لا نحتاط للأمر باستئصال هذا النبات قبل أن تفرّخ بذرتهُ وتنمو في جماجمكم؟

... وإيّاكم أن تفتحوا آذانكم للأقاويل عن علاقاتنا الخارجيّة، فنحن أدرى منكم بمصلحة القضيّة. وحذارِ أن يلعب إبليسٌ ما بعقولكم ويدفعكم إلى إساءة الظنّ بنا، ولاسيّما إذا ما حاول سوء الظنّ هذا أن يترجم إلى تململ مريب، أو تظاهر احتجاجي، أو موقف استنكاري. فنحن والله، أطهر وأمنع من زوجة القيصر، ولا يمكن للشبهات أن تحوم حولنا أو فوقنا أو تقرب منّا.

ولا تستمعوا إلى المضلّلين الّذين قد يوهمونكم أنّ شروط الوحدة بين المضارب قد أصبحت متوفّرة، وأنّه قد آن الأوان لإزاحة الأسوار العازلة المصطنعة، فنحن أدرى بالظروف الملائمة ومناخاتها، وأعلم بسرّ الساعة الآتية، ولا نسمح لأحدٍ أن يزايد علينا في هذا المضمار.

ولا تقلقوا أبداً على الحرّيّات، فهي مصونة في ظلّنا الأمين. كلوا ما شئتم ولا تقربوا المحرّمات، وتغزّلوا ما طاب لكم بالقمر الجميل في ليالي الصحو، وبجواريه الحسان الّتي تحفّ به مرتعشةً من فرط الجوى، وتنشّقوا نسيمَ الصحراء العليل حين تشعرون بضيق في الصدر، ولا تتهامسوا كيلا تظنّ الجدران بكم سوءاً، بل اجهروا دوماً بما تخفيه سرائركم، وتذكّروا أنّ خير الكلام ما كان حمداً على النعم، وشكراً على الآلاء؛ واضربوا في أرضنا الّتي لا تضاهيها في الاتّساع والرحابة والامتداد أوسَعُ الزنازين في العالم.

وإذا استهوتكم الثقافةُ وكنتم من محبّيها، فانهلوا ما شئتم من فيض وسائل إعلامنا، فهي تعرف ما تختار لكم من غذاءٍ روحيٍّ وفكريٍّ صالح، وما تقدّم لكم من وجبات معرفيّة دسمة، من خلال ما تعرض من مآثرنا. أفلا يجدر بالجماهير الواقواقيّة أن تحيط علماً بهذه المآثر الّتي ما كان لها أن تتحقّق فعلاً لولا صادق الولاء لنا وحسن الطاعة من كلّ الجماهير الوفيّة؟»

* * *

ويؤكّد ثقات الرواة أنّ كلّ زعيم حين سكت، جلس مرهقاً يتصبّب عرقاً، فسارعت الحاشية إلى تجفيف عرقه العطري بمناديلهم الحريريّة، فيما كان هو يتطلّع إلى نُسَخِهِ في المضارب الأخرى؛ هذه النسخ الّتي كانت تجلس في الوقت نفسه مرهقة، تتصبّب عرقاً؛ فتسارع المناديلُ الحريريّة إلى تلقّف عرقها النضالي المعطّر.

* * *

وعلى ذمّة هؤلاء الرواة الثقات، فإنّ الوجوم يسيطر الآن على مضارب الواقواقيّين جميعها، وأنّ نوبة ذهول مسكر تأخذ جماهيرهم، فيحارون في توصيفها... هل هي نذير غيبوبة جديدة... أم مدخلٌ لمرحلةٍ جديدة...؟

بيروت